القليوبية قبيل العصر العثماني

هاجر محمود عبد الحميد قطب
معيدة بقسم التاريخ بكلية التربية جامعة عين شمس

مستخلص البحث باللغة العربية

يهدف هذا المبحث إلى دراسة إقليم القليوبية قبيل العصر العثمانى نظرا لاهمية هذا الاقليم،حيث نجد أن القليوبية كانت تتمتع بمكانة كبيرة عبر العصور التاريخية وهذا يرجع فى المقام ألاول إلى قربها من القاهرة .

وعلى الرغم من أن القليوبية كانت فى العصر المملوكى من اهم ألاقاليم المصرية بسبب قربها من القاهرة،حيث كانت تمثل مصدر كبير فى إمدادها بالغذاء بسبب مساحتها الخضراء، وخصوبة أراضيها،وسهولة ريها بمياة النيل،وساعدت الطرق البرية والنهرية المارة فى الإقليم على إزدهارها، إلا أن القليوبية فى أواخر العصر المملوكى وقبيل العصر العثمانى وهى الفترة المعنية بالدراسة كانت تعانى فى كافة مجالات الحياة،ويرجع ذلك إلى ضعف نفوذ المماليك،فضلا عن حدوث الكوارث، وإنتشار الأوبئة،ومن ثم اضطربت حياة الناس وسادت الفوضى بالإقليم.

الكلمات المفتاحية:القليوبية ، المماليك ، العثمانيين، الحياة السياسية ، الحياة الاقتصادية، الحياة الاجتماعية ،الحياة الدينية والثقافية ،الاوبئة والكوارث.

Abstract:

This research aims to study the Qalyubia region before the Ottoman era due to the importance of this region,as we find that Qalyubia enjoyed a great position throughout historical tims,and this is primarily due to lts proximity cairo.

Although in the Mamluk era,Qalyubia was one of the most important Egyptain regions because of its proximity to cairo,as it represted a major source of food supply due to its green area and the fertility of its lands,and its access to the waters of Nile,and the land river roads passing through the region helped it flourish.However,Qalyubia in the late Mamluk era and before the Ottoman era,which is the period concerned with the study,was suffering in all areas of life.this was due to the weakness of the Mamluk influence,as well as the occurrence of disasters and the spread of epidemics,and than people's lives were forced and chaos prevailed in the region.

Keywords: Qalyubia,Mamluks,Ottoman,political life,economic life,and life social,religious and cultural life,epidemics and disasters.

القليوبية قبيل العصر العثماني

هاجر محمود عبد الحميد قطب
معيدة بقسم التاريخ بكلية التربية جامعة عين شمس

لقد كان للظروف التى أحاطت بظهور دولة سلاطين المماليك[1]، والأحداث السياسية والعسكرية حدثت فى العالم الإسلامي عامة والمنطقة العربية منه خاصة، جعلها تتمتع بمكانة خاصة، فكانت هناك مسؤولية للمماليك، وهي التصدي لأعداء الأمة الذين احتلوا القدس، وأجزاء من فلسطين وبلاد الشام، وظهرت دولة المماليك بسبب ظروف تاريخية أحاطت بالدولة الأيوبية فى أواخر عهدهاحيث نجحوا،(أي سلاطين المماليك) في انتزاع الدور التاريخي من الأيوبيين، لاسيما وأن توافدهم الى مصر بشكل خاص، لم ينقطع منذ العصور العباسية المتأخرة، وكان لهم الأثر فى نفوس المسلمين بعد انتصارهم على المغول في عين جالوت(2).

لم تعرف القليوبية كوحدة إدارية مستقلة إلا فى عهد السلطان محمد بن قلاوون (693- 741 هـ / 1293 – 1340م)، فيعد إقليما مستحدثا، وكان من قبل تابعا لإقليم الشرقية، بكل مدنه وقراه(3).

(1) أُطلق اسم المماليك اصطلاحاً في التاريخ الإسلامي على (فئة من الرقيق الأبيض)، وكان الخلفاء وكبار القادة والولاة في دولة الخلافة العباسية يشترونهم من أسواق النخاسة البيضاء، لاستخدامهم كفرق عسكرية خاصة، بهدف الاعتماد عليهم في تدعيم نفوذهم. بدأ العصر المملوكي حين تولت شجرة الدر مقاليد الحكم في القاهرة، بعد مقتل توران شاه ابن الصالح نجم الدين عام(648 هـ - 1250م)، وقد قسم المؤرخون العصر المملوكي إلى مماليك بحرية ومماليك برجية. انظر: محمد بن أحمد الحنفي ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور،ج1 تحقيق: مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2008 ، ص162.

(2) يرجع ظهور المماليك واستخدامهم في العالم الإسلامي إلى عهد الخليفة العباسي المأمون، ثم المعتصم؛ حيث اشتروهم من آسيا، واحتل المماليك مركزا عليا في عهدهما. انظر: أبي جعفر محمد بن جرير الطبري: تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ج8 ، دار المعارف، ط4 ، القاهرة ، مصر ، د . ت. ص230.

(3) القرمانى: أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ، تحقيق: فهمى سعد ؛ أحمد حطيط، مجلد 2، بيروت، لبنان، 1992م، ص ص 280 -281.

موقع القليوبية:

إقليم القليوبية هو إحدى أقاليم مصر الواقعة فى الوجه البحري، ويقع الإقليم على الطريق الثانى من القاهرة إلى الإسكندرية، والتى تمر وسط العمران، وتسمى الواسطى، تبدأ من أسفل القلعة، حتى جهة مدينة قليوب، مرورا إلى مدينة منوف التابعة لمحافظة المنوفية، وهى من الأماكن التى عرفت منذ العصور القديمة[4]، وأيضا فى العصر الإسلامى،ونظرا للإطار المكاني للقليوبية،وما تتميز به من مقومات من حيث الموقع واعتدال المناخ كل ذلك زاد من أهمية المحافظة[5]، وحظيت بمكانة كبيرة عبر العصور التاريخية خاصة في عصر المماليك الذين أقاموا فيها العمائر والمنشآت، فكان يوجد بها الدواوين وبيت مال المسلمين وغيرها، وعلى رأس هؤلاء

(4) القليوبية فى العصر المصرى القديم ، كانت إتريب الفرعونية ، وبعض المدن الأخرى تمثل القليوبية في ذلك العصر، وكانت عاصمة الإقليم العاشر(Kem) ، واسمها (حت حرى إيب)، أي: الإقليم الذى بالوسط واسمها الديني كان(Kankem)، أي: مدينة الثور الأسود ، وهو معبود أهلها، ويدل اسم إتريب على قوة مركزها الديني؛ حيث اشتق اسم مع(حت حرى إيب) ، ويعنى: معبد القلب نسبة إلى قلب أوزوريس ثم أصبح اسمها الأشوري (هاتريب)، وتحول الاسم في العصر القبطي إلى (إثريبي) ، ثم أطلق عليها الرومان(أتريبس) ، فحوله العرب بعد ذلك إلى(إتريب)، ويعود تاريخها للأسرة الرابعة التي أسسها الملك(سنفرو) عام 2613 ق . م، ووجد بها آثار مصرية قديمة ووجد بها آثار تعود للأسرة الوسطى، وتأخذ إتريب نصيبا كبيرا من الاهتمام والرعاية في عهد الدولة الحديثة، ومن أبرز أبناء إتريب في العهد المصري القديم هو أمنحتب بن حبو 1375 - 1455 ق.م المهندس المعماري ، الذى برز في عهد أمنحتب الثالث، وأصبح رئيسا لكهنة معبود بلدته إتريب وكان يفتخر بانتسابه لإتريب. وفى عصر الرعامسة وجد ت إتريب -القليوبية حاليا- مستمرة في مكانتها العظيمة، فاهتم رعمسيس الثانى بها ويأتي ذكر إتريب في بردية هاريس، وبعد انتهاء عصر الرعامسة ووصولا لعهد الملك بيعنخى عثر على عدة آثار في إتريب. وخلال العصر البطلمي يتم الكشف في تل إتريب بإقليم القليبوبية عام 1927 م كنز إتريب. وفى العصر القبطي وجدت هناك أديرة وكنائس أثرية بالمحافظة. انظر: محمد بك رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة 1945 القسم الثاني - (البلاد الحالية)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، عام ، 1994م، ج1 ، ص ص 17- 31.

(5) استفاد المماليك من الموقع الجغرافي المهم لمصر، ومن الفرصة التي واتتهم وجعلت مصر هي الطريق الوحيد الآمن للتجارة العالمية، فاهتموا بموانى مصر وأمنوا الطرق التجارية بكل السبل، فانعكس اثر ذلك على تجارتهم التي ازدهرت، ووصلت إلى مصر بضائع الشرق والغرب وعن طريقها وصلت هذه السلع إلى أوربا أو العكس، ونتيجة لهذا الأمر ولسياسة سلاطين المماليك تضخمت الثروات المالية بأيديهم، وعاشوا في رفاهية وترف، وخلدوا ذكراهم بما شيدوه من عمائر ملأت أرجاء مدينة القاهرة عاصمة إمبراطوريتهم، فضلاً عن عمائرهم بمدن مصر الأخرى. انظر: سعيد عبد الفتاح عاشور: مصر في عصر دولة المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، سلسلة الألف كتاب، رقم 227، ص 17.

السلاطين المماليك الذين اهتموا بالمحافظة كان الظاهر بيبرس، فأقام الترع والسدود وينسب له جامع كبير[6] في قليوب قاعدة الإقليم في ذلك العصر[7].

تقع قليوب علي الجانب الشرقي للبحر السردوسي، الواقع علي بعد ستة أميال من القاهرة، ولتميز قليوب استقر بها كثير من القبائل، وفي عهد الفاطميين نظرا لموقعها الجغرافي ووجود البساتين؛ أصبحت مكان ترويح وتنزه للخلفاء والأمراء، وفي عصر الأيوبيين يذكر النابلسي ما بها من بساتين، وما استجد من إقامة اخراج سلطانية من أشجار السنط لصالح الأسطول، ويقول: فأما القليوبية فمصرها- أي خيرها وزرعها وبساتينها- في قليوب، فهي مدينة عامرة آهلة بالأسواق، فكان لها سوق للعطر كبير به جميع أنواع العطور، وكونها قاعدة الأعمال في العهد المملوكي، وتحتوي علي ألف وسبعمائة بستان من الفاكهة فكانت تسمى (قوت القلوب)، أو واحة الاستجمام للأمراء المماليك، فيتخذون فيها استراحتهم، وكانت من أهم السرحات السلطانية[8] .

(6) الظاهر بيبرس لم يقم ببناء الجامع، بل على الأرجح تم بنائه من قبل قبيلة(الشواربية) باسمه. والجامع قد تم بناؤه على ثلاث مراحل، المرحلة الأولى: عبارة عن مساحة الجامع الداخلية برواق القبلة والرواق الخلفي، والبئر المتواجد فيه، وكتلة المئذنة، وتم إضافة المرحلة الثانية من قبل أحمد الشواربى، وهي عبارة عن مصلى السيدات أعلى الرواق الخلفي، وبها شرفة دكة المبلغ، وأسفلها الممر الملحق المؤدى إلى ممر صلاة للرجال، ثم تم إضا فة المرحلة الثالثة من قبل محمد الشواربي، وهي عبارة عن إضافة مدخل يؤدى إلى ممر صلاة الرجال، ومدخل للممر الموازي له ، ويفضي بنا إلى الميضأة، ولم يرد أي نص إنشائي خاص بذكر الظاهر بيبرس في الجامع، خاصة أن التجديدات التي حدثت في العصر العثماني قد طمست العديد من النقوش، ولكن وجود جامع كبير في قليوب ينسب إلى الظاهر، أو من أعماله المعمارية هناك دليل على تواجده واهتمامه بقليوب، وخاصة أنها تمثل إقطاعا له قبل توليه الحكم. انظر: نجلاء محمود عبد الرحيم محمود: الجغرفيا التاريخية لأعمال القليوبية، رسالة ماجيستر، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم الجغرافيا، 2008 م، ص ص 45- 52.

(7) لقد عثر على آثار إسلامية عديدة في محافظة القليوبية، مثل لوحة مسجد سيدي حاتم، وقنطرة ترعة أبو المنجا ، التي تقع بقرية ميت نما مركز شبرا الخيمة، وجامع الظاهر بيبرس بقليوب، وجامع الأشرف برسباى بالخانكة، وعدة مساجد تعود إلى العصر العثماني، واهتم العثمانيون أيضا بشؤون الري، وخاصه في عهد محمد على الذي أمر بإنشاء قناطر عند رأس الدلتا، ومن الآثار المدنية السكنية الإسلامية في محافظه القليوبية يوجد قصر محمد على الشهير بشبرا الخيمة. انظر: محمد ناصر محمد عفيفي القباب الأثرية الباقية بدلتا مصر فى العصر الإسلامي، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط 1 ، عام 2005، ص ص 6 – 7.

(8) **السرحات السلطانية:** يقصد بها خروج السلطان وأعوانه الي الأماكن التي يتوافر فيها من المراعي الطبيعية ما يكفي للخيول، التي تمثل عماد الأنشطة الاجتماعية الثلاثة الترويح والصيد والفروسية مثل: سرحة قليوب وقلما للمزيد انظر: عبد العال عبد المنعم الشامي: السرحات السلطانية (أماكن الترويح والصيد والفروسية في مصر زمن الأيوبيين– والمماليك567 – 973 هـ)، وحدة البحث والترجمة قسم الجغرافيا، جامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية، عام 1994، ص ص 22 – 23 .

القليوبية فى الحياة السياسية المملوكية :

انتشرت القبائل العربية التي جاءت إلى مصر منذ الفتح العربي، حتى العصر الأيوبي، وفى عهد المماليك 648 - 923 هـ 1250- 1517 ، انتشرت فى قليوب بطون عربية تحترف الزراعة واستقرارهم أدى إلى اشتغالهم بالمدنية والتحضر والحياة العامة مثل الشواربية[9] .

تمتعت قليوب بشغلها مكانة مميزة في العهد الإسلامي، وخاصة في عهد سلاطين المماليك، الذين قاموا بمشروعات عمرانية واقتصادية، ساعدت على بزوغ نجمها في ذلك العصر. وبجانب موقعها المتميز زاد من أهميتها الحضارية تواجدها على شبكة الطرق البرية، وطرق البريد في عهد المماليك، ومرور الطرق النهرية المهمة بها، فأصبحت قليوب مصدرا غذائيا مهما للعاصمة في هذه الفترة[10].

شغلت القليوبية مكانا فى الحياة العامة فى العصر المملوكى، حيث كانت مدن الإقليم بها كثير من الأحداث السياسية، فكان السلطان محمد بن قلاوون يقضى أفضل أوقاته بمكان يسمى الخانقاه – أحد مدن القليوبية حاليا – للتمتع بمنظر البساتين. وفى سرياقوس بالقليوبية تم استقبال السلطان محمد بن قلاون - بعد رجوعه من الشام – لتوليه الحكم للمرة الثالثة عام 1310م، وصلى فيها العيد[11].

وأهم ما يميز الحياة السياسية في مصر أثناء حكم المماليك، هو عدم وجود أثر لمبدأ الحكم الوراثي الأيوبى السابق، فالسلطنة حق مشروع للقادر من المماليك على انتزاعه، وبسبب ذلك عانت مصر من المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك في شوارع

(9) **قبيلة الشواربية:** ينتمي لها معظم سكان قليوب، وهي من عرب الحجاز، ومثل قبيلة الصوالح من بني حرام في شبين القناطر، وبنو جذام من كهلان القحطانية، أتوا مع عمرو بن العاص واستقروا في نوب، وطحا بطوخ. انظر: شرف الدين يحيي بن المقر بن الجيعان(ت 902 هـ)، التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1974 م، ص 70 .

(10) وئام أحمد حسين: القليوبية في القرن التاسع عشر، رسالة ماجيستر ، جامعة الازهر، كلية اللغة العربية، قسم التاريخ والحضارة، 1996 م، ص 25.

(11) محمد جمال الدين سرور : دولة بنى قلاوون، القاهرة ١٩٤٧م، ص ٢٨ .

القاهرة، وزاد من شد ذلك أن السلاطين عجزوا في ذلك العصر عن كبح جماح مماليكهم، مما أثر ذلك على جوانب الحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية فيها، وأدى ذلك بالنتيجة الى القلق وعدم الاستقرار فى عصر المماليك(12).

كان حصاد الروح التنافسية القائمة بين المماليك سلسلة من المتاعب والمنازعات التي كانت تفرض نفسها على عموم الحياة المصرية، وبخاصة كلما جلس على العرش سلطان ذو شخصية ضعيفة، أو صغير السن، فقد اتسم عصر المماليك، وبخاصة عصر المماليك البرجية، باستشراء الفساد الشديد في الدوائر الحاكمة في الدولة، وازدياد ثورة المماليك الإجاب وعجز السلاطين العثمانيين عن ردهم وكثرة عزل وتولية السلاطين، فلا يكاد السلطان يبقى في منصبه أياماً بل ساعات حتى يعزل وينصب غيره، وأن عشر السلطنة في مصر بقي مشاعاً لمن يستطيع يستطيع التغلب على منافسيه أو إقناع الأمراء بمساندته، وبقي الأتاب(المرشح الرئيسي لمنصب السلطنة)، يخلع السلطان الجديد وينصب نفسه مكانه، كما أن نظام الخلافة نظام الإقطاع العسكري الذي اعتمده سلاطين المماليك، قد حول الناس هذا النظام الى مجرد عبيد لا حرية لهم، بل هم وأولادهم في حكم العبيد للسيد الإقطاعي الذي يستنزف جهدهم ولا ينالون من تعبهم إلا أقل القليل، وقد ترتب على مظالم الإقطاع هذه أن هرب الفلاحون من الأرض، فضاقت مساحة البلاد المزروعة، فضلاً عن ما لحق البلاد من الكوارث الطبيعية، وتوالي سنوات القحط والجذب وانتشار الأوبئة، فلذلك انعدم توفر الأمن الغذائي، فارتفعت الأسعار ووقع الغلاء(13).

وقام السلاطين باستبدال العملة الفضية والذهبية، بعملة نحاسية، وقاموا بأخذ ما بأيدي الناس من نقود ذهبية فضية، مما أدى الى عدم الثقة في التبادل التجاري، لاسيما وأن المركز النقدي للبلاد لم يطرأ عليه أي تحسن حتى نهاية عصر المماليك(14).

(12) أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992 م، ص 198.

(13) جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: أبو الفضل، الطبعة الأولى، المكتبة العصرية، بيروت، 2004 م، ص 181.

(14) عبد الرحمن فهمي محمد: النقود العربية ماضيها وحاضرها، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة،1964م، ص 110.

كان عامة الناس يعانون من الفقر وصعوبة الحصول على حاجاتهم في أغلب الأحوال، ما عدا فئة السلاطين وحاشيتهم وجماعات التجار والمستنفذين من أصحاب الامتيازات، كما يبدوا أن لعلماء وطلبة العلم لم تكن حالتهم سيئة؛ نظرًا لما يأتي من أوقاف المدارس والمساجد ودور العلم(15).

لقد ساءت أحوال المجتمع المصري في عصر المماليك عموماً، وتكون المجتمع المصري من أعراق عديدة فهناك العرب، وهم الأ كثرية والأتراك والجراكسة والكرد واليهود والنصارى والأقباط والأفارقة السود، وكان النفوذ والسيادة للترك، ومن بعدهم الجراكسة والكرد واليهود والنصارى والأقباط والأفارقة السود، وكان النفوذ والسيادة للترك ومن بعدهم الجركس الذين كانا يشكلان الطبقة الاجتماعية المتنفذة وصاحبة الأقطاعات الواسعة والتي لم تمتزج بأهل البلاد(16).

فقد ضعف الجيش بسبب تقليص الإقطاعات التي تُقدم له، مما ساعد على إثارة الفتن ومنع الحقوق، ثم انقسم المجتمع المصري إلى طبقتين:

الأولى: طبقة من الحكام العسكريين لهم كل الامتيازات والحقوق ويملكون الأ راضي الزراعية كلها، في مقابل الرعية التي اقتصر دورها على الإنتاج ودفع الضرائب، ولم يكن من حق أفرادها أن يشاركوا في مسؤوليات الحكم والإدارة، وقد انعكس ذلك بطبيعة الحال على شكل النشاط اليومي في الحياة المصرية في ذلك الوقت، والفئة الثانية: كانت من المزارعين الكادحين(17).

ووجد نظام الالتزام لدى المماليك، وكان للملتزم أرض تدعى (الأوسية) – مفردها الوسية - هي ملك حر مطلق له، يزرعها لحسابه، ويستعمل في زرعها الفلاحين بطريق السخرة، وفي جنب تلك الأوسية الأراضي التي يعطي الملتزم حق الانتفاع بها للفلاحين،

(15) قاسم عبده قاسم: عصر ساطين المماليك التاريخ السياسي والاجتماعي، عين للدراسات الإنسانية، القاهرة، 2007م، ص 64.

(16) فوزي جرجس: دراسات في تاريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي، مكتبة العربي، القاهرة، د.ت، ص 12.

(17) مفيد الزيدي: موسوعة التاريخ الإسلامي : العصر المملوكي، دار أسامة، عمان، الأردن، 2006 م، ص308.

ولهم أن يهبوا أو يبيعوا هذا الحق؛ لأن الملتزم يظل المالك الفعلي لتلك الأراضي ما دام له الحق في تصعيد ضريبتها أو تخفيضها، وما دام قادرا على منحها، أو بيعها لملتزمين آخرين، وأنها تصبح بعده ملكا لأولاده، وأنه مخول ضمها إلى أعيانه الخاصة إذا مات الفلاح الواضع اليد عليها بلا وارث، خلافا للحال في سائر مملوكات الفلاح كبيته ومنقوله وماشيته، فهذه إذا مات عنها بلا وارث آلت إلى بيت المال لا إلى الملتزم(18).

ومن حق الملتزم أيضا استرداد الأطيان من الفلاح؛ إذا عجز عن زرعها وخشي ألا يقدر على سداد إتاوتها، على أنه حر في زرع الأصناف التي يتخيرها بشرط أن يوفي تلك الإتاوة، فى نهاية موسم الزرع. وبعض المماليك كانوا يرخصون للملتزمين بموجب أوامر عليه في وقف التزامهم على ذريتهم، وعلى وجوه من البر، مقابل مبلغ يدفعونه مواز للضريبة في بضع سنوات(19).

كانت الوظائف الإدارية فى الدولة المملوكية حكرا على أرباب السيوف، فيما يخص الولاية، فكان للوجه البحرى نائبان أولهما: نائب الوجه البحرى، ثم عين له استادارا (20) يقوم بـالبحيرة، ونائب ثغر دمياط، والمرتبة الثانية الكشاف وكـان للقليوبية، مقره مدينتى قليوب ومنوف حتى أهمل الكشف مع المنوفية كاشف من أمراء الطبلخانة، ثم أصبح لها واليا لاستبداد الاستادار له بالعزل تحت إمرة كاشف الوجه البحرى الذى يعبر عنه بوالى الولاة، وقد عين فيما بعد من أمراء الطبلخانة بعد استحداث نائب الوجه البحرى ومقره منية غمر بالشرقية، أما والي القليوبية، فكان من إمرة عشرة، ثم استقر بها نائبا عن الاستادار(21).

(18) بن زولاق: فضائل مصر وأخبارها وخواصها، تحقيق علي محمد عمر، الطبعة الثانية، الخانجي، القاهرة، 2000م، ص ص 216 – 217.

(19) سعيد عبد الفتاح عاشور: المجتمع المصري في عصر سلالطين المماليك، الطبعة الأولى، النهضة العربية، القاهرة، 1962م، ص 134.

(20) **استادارا**: هو لقب يطلق على من يتولى قبض المال السلطانى وصرفه وتمثيل أومر السلطان فيه. انظر: محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية فى العصر المملوكى، بيروت، 1990، ص 15.

(21) نجم الدين محمد بن محمد الغزي : الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، تحقيق: خليل المنصور، الطبعة الأولى، ١٩٩٧ م بيروت، ج ١، ص ص 22 - 24.

الحياة الاقتصادية:

كان النشاط الاقتصادى مزدهرا بإقليم القليوبية فى العصر المملوكى، نظرا لتوافر المياه بها، وخصووبة أرضها الزراعية، وبها كثرة أسواق لبيع الغلال وسوق لبيع الفواكه، وسوق لبيع المواشى وخاصة الجمال؛ لما برع فيه أهل الإقليم من الاهتمام بتربية الجمال خاصة، ومن اهتمام الحكام بالإقليم تم تعمير القناطر من قليوب إلى دمياط وخاصة فى عهد السلطان بيبرس (708 709 هـ / 1309- 1310م). [22]

تميزت قليوب بكثرة بساتينها، مما جعلها من الأماكن المخصصة للسرحات السلطانية، وكل المميزات السابقة ساعدت على ازدياد أهميتها الاقتصادية في عهد المماليك، فكانت من أهم المناطق الزراعية، وروجت حركة التجارة، وانتشرت الأسواق داخل قليوب، وقد نرى في كل ذلك دوافع وعوامل ساعدت المماليك على تعمير هذه البلدة بالمنشآت الدينية وإنشاء الدواوين وبيت المال وبيمارستان للمرضى ومحكمة شرعية[23].

وكانت نواحي القليوبية تابعة لإقليم الشرقية ثم فصلت عنها لكثرة قراها واتساع خراجها، وحتى نهاية عصر سلاطين المماليك، وعرفت باسم الأعمال القليوبية نسبة إلى مدينه قليوب التي كانت قاعدة لها وفى سنة (1248 هـ/ 1833 م) سميت مديرية القليوبية وقاعدتها قليوب[24].

وفي عهد المماليك كانت القليوبية من أهم المناطق الزراعية، وازدهرت حركة التجارة وانتشرت الأسواق داخل قليوب، فزادت القليوبية من أهميتها لدى المماليك زراعيا وتجاريا[25].

أصدر الملك الناصر محمد بن قلاوون مرسوما بعمل الروك الناصرى فى القليوبية، واستحدثت كثيرمن الأعمال فى القليوبية بأمر منه في سنة(715 هـ 1315 م) [26].

(22) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج3، بيروت، لبنان، ط2، 1995، ص ص 32 - 35.
(23) عبد العال عبد المنعم الشامي: مرجع سابق، ص ص34- 47.
(24) محمد بن أحمد الحنفي ابن إياس: مرجع سابق، ص 296.
(25) وئام أحمد حسين: مرجع سابق، ص 29.

وعثر على آثار إسلامية عديدة في محافظة القليوبية تعود إلى العصر المملوكى مثل لوحة مسجد سيدي حاتم، وقنطرة ترعة أبو المنجا التي تقع بقرية ميت نما مركز شبرا الخيمة، وجامع الظاهر بيبرس بقليوب، وجامع الأشرف برسباى بالخانكة، وكثير من المساجد(27).

إن البيئة الاقتصادية التي كانت سائدة في العصر المملوكي، تعكس الظروف السياسية السائدة، وبسبب الفتن والمؤامرات الداخلية والخارجية كان هناك حاجة ملحة لتنمية القوة العسكرية مواجهة الأعداء، فاتجه المماليك، لتقوية الجيش المملوكي عن طريق شراء المماليك الجدد بشكل واسع، وقد كانت الوسيلة لإعالة جيوش المماليك الاعتماد في إدارة البلاد على الإقطاعات، وذلك بتقسيم الأرض الزراعية في مصر على أربعة وعشرين قيراطاً، أما عن تقسيم الأرض فيقول ابن خلدون: كانت مصر مقسمة على أربعة وعشرين قيراطاً أربعة منها للسلطان والرواتب، وعشرة للأمراء، والزيادات، وعشرة للأجناد، فصيّروها عشرة للأمراء والإطلاقات والزيادات والأجناد، وأربعة عشر للسلطان فضعف الجيش(28) .

كانت الزراعة أهم مصدر من مصادر اقتصاد الدولة المملوكية؛ وذلك بسبب اهتمام أصحاب الحكم في دولة المماليك بتطوير الزراعة، والعمل على زيادة الأراضي الزراعية، بالإضافة إلى أن البيئة كانت مناسبة لزراعة كثير من المحاصيل، وقد اعتمدت الزراعة على النيل فتزدهر بزيادة ووفرة المياه، وكانت كمية الضرائب تقدر تبعاً لحالة نهر النيل من زيادة، أو نقصان، أو جفاف(29).

أما عن الصناعة، فقد ازدهرت الحرف والصناعات بأنواعها في العصر المملوكي، وتناسبت مع طبيعة النظام السياسي والعسكري، مما ساعد على نشأة الصناعات الحربية

(26) نجلاء محمود عبد الرحيم محمود: مرجع سابق، ص 88.
(27) محمد ناصر محمد عفيفي: مرجع سابق، ص ص 19 – 22.
(28) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون:، تحقيق: خليل شحادة، ج5، دار الفكر، ط2 ، بيروت، لبنان، 1988م، ص 470.
(29) قاسم عبده قاسم : النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ط1 ، 1978م، ص ص 21 – 22.

كصناعة المراكب والسفن والأسلحة من رماح وسيوف ومجانيق، كماكانت تتناسب مع النظام الاجتماعي الطبقي، حيث فرض ذلك النظام تطور صناعة الأطعمة والحلويات والملابس والزخارف، بما يتناسب مع مظاهر حياة الرفاهية التي كانوا يعيشونها.[30]

ولقد كثرت الأسواق نتيجة للنمو السكاني الذي ارتفع مع زيادة عدد الجنود المماليك المجلوبين إلى البلاد، وكان لكل مدينة أسواق، واكتظت تلك الأسواق بالبضائع، وتنوعت الأسواق في العصر المملوكي بتنوع البضاعة ومن تلك الأسواق: سوق باب الفتوح لبيع أنواع اللحوم، وسوق الدجاجين لبيع الدجاج والطيور، وسوق دار الفاكهة، وسوق الحلاويين لبيع أنواع الحلوى، وسوق الأباريين لبيع لوازم الخياطة، وسوق الجوخيين لبيع الملابس الجوخ المستوردة من أوروبا، وسوق المُرحَلين لبيع لوازم السفر، وسوق الصنادقيين لبيع الصناديق، وسوق الحارة فيه كل المستلزمات التى يحتاجها الناس[31].

وقد احتل التجار مكانة رفيعة عند السلاطين، وقد ارتبطوا بطبقة الحكام، وقد كانت الدولة المملوكية همزة وصل بين التجار في الشرق والغرب، وقد كانت هذه التجارة تجلب الأرباح الطائلة للدولة، لذا كانت معاملة التجار أفضل معاملة[32] .

وقد اهتم سلاطين المماليك بالنشاط التجاري، وشجعوا على جلب البضائع من الخارج، وقد شيدوا العمارات والقصور الفخمة، وأنشأوا المرافق التجارية؛ ليستريح فيها التجار في حلّهم وترحالهم وقدموا كافة التسهيلات للتجار[33].

إن التطور التجاري انعكس على حياة الوزراء والأمراء والسلاطين؛ فشيدوا القصور الفخمة وزينوها، وأسرفوا في ذلك، وأكثروا من اقتناء الحلي والمجوهرات وأكثروا من عدد الجواري والخدم، وقد كثر الرخاء وأكثروا من الهدايا والعطايا والهبات[34].

(30) أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي: مصدر سابق، ص 298.
(31) قاسم عبده قاسم: أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، 1978 م، ص -ص 9 -11 .
(32) المرجع نفسه: ص 113.
(33) مفيد الزيدي: مرجع سابق، ص 366.
(34) أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي: مصدر سابق، ص 304.

وظهر نشاط الصيارفة [35] فى العصر المملوكى سواء في القاهرة وقليوب وشبرا بإقليم القليوبية، وكان قائماً على أساس التعامل بالنقود المعدنية، فقد تم تداول الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والفلوس النحاسية في كل من مصر والشام زمن المماليك، وقد ارتضى الناس منذ قديم الزمن استخدام المعادن وسيطاً لإتمام هذه المعاملات، وخاصة معدني الذهب والفضة، لعدة اعتبارات من أهمها: أن المعادن ذات عيار ثابت، مما أسهم في الاستقرار الاقتصادي، كما أنها لا تحتاج إلى نفقة في حفظها، إضافة إلى أنها قادرة على تحمل تقلبات الدهر وامتازت بسهولة الحمل والنقل، فضلاً عن قابليتها للتجزئة؛ وفقاً لاختلاف الأغراض والاحتياجات. وضربت العملة النحاسية، وكثرت في العهد الجركسي، حتى أطلق على عصر المماليك الأخير عصر النحاس، وقد عرفت العملات الأجنبية طريقها إلى الأسواق المملوكية، لكن لم يقدر لبعضها الصمود والاستمرار[36].

وجدت عدة مهن ووظائف مساندة وداعمة للأعمال المصرفية التي قام بها الصيارفة فى العصر المملوكى، حتى يتسنى لهم العمل بشكل جيد وفق منظومة اقتصادية منظمة، فقد ارتبط الصيارفة والجهابذة بالصاغة من ناحية تشابه طبيعة عملهم الذي اعتمد في المقام الأول على التعامل مع المعادن الثمينة، وسكهم النقود في حوانيتهم أو بيوتهم بالتنسيق مع الدولة المملوكية ودور الضرب وفق ضوابط وآلية معينة، حتى إن حوانيت الصاغة كانت مصطفة إلى جانب حوانيت الصيارفة في الأسواق، وملازمة لها لاعتماد كل منهما على الآخر [37].

(35) الصيارفة كلمة مأخوذة من الصَّرف، " صرفه ، يصرفه، صرفاً ، فانصرف"، والصرف كما جاء في لسان العرب " : فُضْلُ الدرهم على الدرهم، والدينار على الدينار، لأن كل واحد منها يُصرف طبقاً لقيمته، وهو صاحب الخبرة الكبيرة في نقد النقود، ومعرفة خباياها وأسرارها. انظر: ابن منظور : لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط 1، 1990، ج 9، ص ص 189 – 190. وانظر: جلال الدين السيوطى: قطع المجادلة عند تغيير المعاملة ، تحقيق: محمد بن علي الحريري، عالم الكتب، ص844 .

(36) عبدالرحمن محمد فهمى: النقود العربية ماضيها وحاضرها، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، 2009، ص21 .

(37) حمود محمد النجيدي: النظام النقدي المملوكي، (648 – 922 هـ / 1250 – 1517 م)، دراسة تاريخية حضارية، ط1، مؤسسة الثقافة الجامعية، الأسكندرية، 1993، ص 89.

ومع اضطراب الأوضاع في أواخر الدولة المملوكية كان ذلك سبباً لكساد الأسواق وانهيار النظام الاقتصادي، ومما ساعد على ذلك أيضاً قيام الحكومة بخفض قيمة العملات المتداولة في الأسواق من أجل تحقيق مكاسب عالية للسلطان، والضرائب الباهظة التي فُرضت على التجار، مما مما أدى إلى رفع الأسعار لتحصيل الضرائب الذي ساعد على كساد الأسواق، الإضافة إلى تدخل تدخل حكام المماليك ورفع أسعار البضائع من خلال احتكار السلاطين والأمراء للغلال، وكان هذا السلاح ساعدهم في التحكم في الأسعار(38).

الحياة الدينية والثقافية:

ومن الناحية الدينية حرص المماليك على الحفاظ على مظاهر الحياة الإسلامية كونهم مسلمين، فقد تربوا تربية إسلامية خالصة، فاهتموا بكتابة القرآن وتزيين صفحاته بزخارف ملونة، وأُبطلت الكثير من الملاهي، وأُغلقت أماكن الخمر، وحوربت المذاهب المناهضة للمذهب السُني، الذي تعرض لمكائد عديدة من أصحاب هذه الحركات الهدامة، وقد اهتم المماليك بتقريب علماء الدين منهم، ليأخذوا الفتاوى منهم، وقد كانت لهم مكانة اجتماعية عالية في هذا العصر(39).

شهد العصر المملوكي حركة علمية واسعة وازدهاراً ثقافياً في شتى المجالات، ومما ساعد على ذلك الظروف السياسية التي حلت بالعالم الإسلامي، وما أصاب بغداد من دمار وخراب نتيجة للغزو المغولي، فأصبح العلماء يتجهون لمصر والشام وتفاعلوا بالحركة العلمية فيهما، وأسهموا في إثراء المكتبة العربية بالموسوعات التي تم تأليفها في مختلف العلوم والفنون، وساعد النتاج العلمي والأدبي الذي ألفوه على تعويض الخسارة التي لحقت بالأمة على أيدي المغول(40).

(38) مفيد الزيدي: مرجع سابق، ص ص 378 - 379.

(39) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، ج 1 ، مكتبة الآداب، المطبعة النموذجية، 1962م، ص 42.

(40) نبيل أبو على: الأدب العربي بين عصرين المملوكى والعثماني، دار المقداد، غزة، 2007 م، ص 30.

أنشأ السلطان بيبرس مسجدا له فى إقليم القليوبية، وسماه باسمه فى بمدينة قليوب، وظهرت الخانقاه بناحية سرياقوس وكانت مخصصه للعلم والعبادة، وبنى بها رباطان يحتوى كل واحد منهما على أربعة وعشرين بيتا، وخصصه للمتصوفة ووأهل العلم، وبهما مطبخ لأطعام العلماء وطلبة العلم والفقراء، وظهرت كثير من الخانقاه في الإقليم فى شبرا وقليوب، وبنيت حجرات للمعلمين والفقراء وأهل الصوفية(41).

وقد اهتم سلاطين المماليك بتشجيع العلماء وتقريبهم من مجالسهم ومشاورتهم في كثير من القضايا، حيث كان الظاهر بيبرس يقرب منه العلماء، وكان يميل للتاريخ وأهله ويقول :سماع التاريخ أعظم من التجارب(42).

نال إقليم القليوبية عناية السلاطين المماليك فى الشئون الدينية والثقافية، فشيدوا فيها دور للعبادة والعلم الدينى، وأنشأ الظاهر بيبرس مسجدا باسمه بمدينة قليوب، وشيد السلطان الناصر محمد بن قلاوون خاناقاه بناحية سرياقوس، وأمدها السلطان بالكتب، وظهرت ثقافة سلاطين المماليك من خلال عنايتهم بأبناء جلدتهم من الناحية التربوية والثقافية والعلمية، وتنشئتهم تنشئة صارمة اعتمدت على التربية الدينية والتربية العسكرية، حيث يقول المقريزي في طرق تنشئتهم: إذا قدم بالمملوك عرضه على السلطان ونزله في طبقات جنسه، وأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم، وكانت كل طائفة لها فقيه، يحضر إليها كل يوم ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى، ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة، وملازمة الصلوات والأذكار، وكان القانون إذ ذاك أن لا تجلب التجار إلا المماليك الصغار، فإذا شب الواحد من المماليك علمه الفقيه شيئاً من الفقه، فإذا صار في سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب من

(41) حياة ناصر الحجى : صور من الحضارة العربية الإسلامية فى سلطنة المماليك، ط الأولى الكويت، ١٩٩٢ م، ص ص 64 – 65.

(42) عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي من مطلع القرن الخامس الهجري إلى الفتح العثماني، ج3، دار العلم للملايين، ط5، بيروت، 1989م، ص ص605 – 607.

رمي السهام ولعب الرمح...، فيتسلم كل طائفة معلم حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج[43] .

ولم ينس سلاطين المماليك ضمان الحياة الكريمة والدخل الذي يكفل للعلماء مستوى مرموقاً من العيش، حيث أنشأ الظاهر بيبرس مدرستين: شافعية وحنفية، جعل لكل مدرسة مدرساً وله مائة وخمسون درهماً في الشهر، وجعل الملك المنصور قلاوون راتب المدرس في المدرسة مائتي درهم[44].

وقد اتُخذت اللغة العربية لغة رسمية في عصر المماليك، على الرغم أن حكامها من الأعاجم إلا أنهم مسلمون، واهتمامهم بالدين الإسلامي، جعلهم يهتمون بلغة الإسلام، فأعطوا اللغة العربية عناية خاصة، واستعانوا بأبرع أهل اللغة :المتعممين ممن تخرجوا في المساجد وزاولوا المكاتبات العربية في أعمال الدولة، مما ساعد على رواج العربية والفصحى داخل الدواوين، وظهور طبقة ممتازة من رجال اللغة والأدب والإنشاء، وكثرت المدارس في عهد المماليك، وأُنشئت دور الكتب، واهتم سلاطين الدولة باختيار معلميها، واهتموا بالطلبة، فراج سوق التعليم واتسعت حركته فى العصر المملوكى[45] .

ويمتاز العصر المملوكي بأنه عصر الموسوعات العلمية والأدبية، فقد ظهرت طائفة من العلماء متخصصين في علوم مختلفة، ونشطت حركة التأليف في الكتب والموسوعات، ومن أشهر تلك الموسوعات: كتاب صبح الأعشى لأبي العباس القلقشندي، وكتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري، وكتاب نهاية الأرب في فنون الأدب لأحمد بن عبد الوهاب النويري، وقد أثرت التغيرات السياسية والفتن الداخلية والحروب على الحياة العلمية والثقافية، مع دخول اللغة العامية وقد اختلطت بالفصحى، ودخلت بعض الألفاظ الدخيلة، ومع هذا فقد شهد العصر المملوكي نشاطاً

(43) تقي الدين المقريزى: السلوك لمعرفة الملوك، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ط2، 1957م، ص ص 318 – 319.

(44) محمود رزق سليم: مرجع سابق، ص 84.

(45) نبيل أبو على: مرجع سابق، ص 57.

علمياً واسعاً في شتى الفنون والعلوم، حتى عُدت المؤلفات بعشرات الألوف في مدة زمنية لم تتجاوز ثلاثمائة عام، تعاقب خلالها على الحكم سلاطين أشداء، وجهوا هممهم إلى الحروب والجهاد، ولكنهم لم يغفلوا أبداً عن تشجيع العلوم وتقريب العلماء، فلا يخلو عصر أحد منهم من بناء جامع أو مدرسة أو مكتبة. ومازالت القاهرة وكثير من المدن المصرية تمتلئ بالجوامع الجميلة التي يعود تاريخها الى سلاطين المماليك ، وقد قدرت أعداد المساجد بمصر على عصر سلاطين المماليك بأ كثر من ألف مسجد(46) .

الحياة الاجتماعية:

انقسم المجتمع المملوكي إلى فئتين بارزتين هما: الفئة الخاصة التي شملت رجال الدولة كالملوك ومعاونيهم والوزراء وكبار موظفي الدولة، وقيادات الجيش والعلماء والفقهاء الذين اتصلوا بالسلطة الحاكمة، وقد نال الفقهاء والعلماء مكانة مرموقة (47).

أما الفئة الثانية: فهي فئة العامة التي شكلت الطبقة الكبرى، وتضم التجار والصناع وأرباب الحرف الأخرى، والفلاحين الذين يعملون عند كبار رجال الدولة(48).

وقد كانت فئة المماليك من أغنى طبقات المجتمع، حيث يعيشون في ثراء فاحش، مما دل على ذلك الأموال الطائلة والمماليك والخيول والبغال والجمال والثياب والأواني والفواكه التي كانت تقدم هديةً للبقاء في منصب، أو الرغبة في الحصول على نيابة أو ولاية إحدى المدن(49).

وفي ظل النظام الاجتماعي السائد، كان هناك أهم رابطتين تربطهم ببعضهم: رابطة الأستاذية، وهي تربط المملوك بسيده الذي اشتراه منذ صغره، وأعتقه في كبره ليشق طريقه، وأثبت نفسه على مسرح الأحداث ورابطة الأخشداشية، وهي رابطة الزمالة التي تربط المماليك ببعضهم، وتعد من أقوى الروابط؛ لأنها تقوم على رباط العاطفة بين جميع

(46) عمر فروخ: مرجع سابق، ص618.

(47) عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، تحقيق : أحمد الزغبي، دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، د.ت، ص47 .

(48) قاسم عبده قاسم: أسواق مصر فى عصر سلاطين المماليك،مرجع سابق، ص 157.

(49) عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون: مصدر سابق، ص 56.

المماليك الذين نشأوا في كنف أستاذ واحد نُسبوا إليه كالظاهرية نسبة إلى الظاهر، ولم تشارك هذه الطبقة في حياة الشعب العامة إلا في المواكب والأعياد والاحتفالات الدينية(50).

وبعض أبناء المماليك الذين لم يمسهم الرق كآبائهم، فقد كانوا يمضون وقت فراغهم في ممارسة بعض الألعاب والرياضة كالفروسية ولعب الكرة ورمي الرماح، وقد جعلتهم الثروة التي تُركت لهم يعيشون حياة بعيدة عن حياة الطبقة الحاكمة، ومن هؤلاء الأبناء والذين شاركوا في الحياة الثقافية(51).

إن طبقة التجار وطبقة العلماء والفقهاء وطلاب العلم كانوا يعيشون في وضع اجتماعي مريح ولاسيما الطبقة الأولى، ولكن معظم الفئات الاجتماعية الأخرى والتي تشكل غالب أهل البلاد، تحيا حياة أقرب الى البؤس والحرمان، وامتازت الحياة الاجتماعية في مصر في عصر سلاطين المماليك بكثرة الأعياد الدينية والقومية والمبالغة في أحيائها، وبخاصة الأعياد القومية مثل: الاحتفال بوفاء النيل أو تولية سلطان جديد، وتتضاعف مظاهر الفرح عند عودة السلطان منتصرًا في المعارك، وبرزت ظاهرة اجتماعية دينية في عهد المماليك على نطاق واسع، وهي ظاهرة التصوف والطرق الصوفية، وتعدد مذاهبها وشيوخها ويبدوا أن عامة الناس قد وجدوا فيها متنفساً لهمومهم، فهرعوا الى الخوانق وبيوت الصوفية(52) .

ومع أن أصول المماليك غير عربية، إلا أنهم اعتبروا أنفسهم عرباً بل حماة للعرب والإسلام ضد أعدائهما، حتى أنه كانت من ألقاب سلاطينهم سيد ملوك العرب، وكانوا يتعلمون الخط العربي والقرآن وأحكام الشريعة الإسلامية، حتى عرفوا أيضاً بالكتابية،

(50) قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص162.

(51) محمد بن أحمد الحنفي ابن إياس: جواهر السلوك في أمر الخلفاء والملوك، الدار الثقافية ط1،القاهرة، 2006 م، ص ص 412 – 413.

(52) محمد بن سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ط2 ، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1999 م، ص 45.

وقد أتقن السلطان قانصوه الغوري الذي كان معاصرا للسيوطي[53]، اللغة العربية وكان له ولع شديد بالأداب والعلوم، كما يفهم في الشعر ومغرماً بقراءة السير والتاريخ، ولذلك أصبحت القاهرة في عهدهم حاضرة العالم الإسلامي ومركز الأشعاع العلمي والثقافي، ولاشك أن هذا النهوض الثقافي والعلمي كان نتيجة لعدة عوامل منها خارجية ومنها داخلية[54].

الأوبئة والكوارث:

مع كل ما تميزت به القليوبية من حسن وبهاء، فانها لم تسلم من الكوارث، أو حتى من آثارها التى نجت هى منها، وقد تنوعت تلك الكوارث ما بين الأوبئة والأمراض، وفيضان النيل، وسوء الطقس. وعلى الرغم من أن (سرياقوس) كانت مهربا للسلاطين والأمراء من الأوبئة، إلا أنها لم تكن فى مأمن دائم منه، فقد داهمها الوباء عام 833هـ/1429م، فكانت تزهق أرواح الكثير يوميا ومنهم شاد بك كاشف القليوبية[55].

وزاد النيل فى عام 922هـ/1516م ونتج عنه الكثير من الأضرار، وأيضا هبت ريح شديدة عاصفة بالديار المصرية نتج عنها غرق الكثير من المراكب فى النيل فهلك فيها خلق كثير وأمطرت قليوب مطرا غزيرا[56].

وأصاب الناس الهم بسرياقوس من انتشار السرقات فى عام 749ه/1348م فتصدى لضبط الأمن الوزير منجك، واستعان بعرب صبره، حتى استطاع الإمساك باللصوص، وتوقيع العقوبات عليهم[57].

(53) السيوطى: هو الإمام جلال الدين السيوطى المولود بالقاهرة، 849هـ - 1445م.

(54) محمد بن أحمد الحنفي ابن إياس:مصدر سابق،ص291 .

(55) نجلاء مصطفى شيحة: إقليم القليوبية فى العصر المملوكي (648-923هـ/ 1250- 1517) دراسة تاريخية حضارية)، ص 51.

(56) ناصر أحمد إبراهيم: الأوبئة والأزمات الاجتماعية في مصر فى القرن السابع عشر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2012 م، ص 139.

(57) نجلاء مصطفى شيحة: مرجع سابق، ص 52.

وبالرغم من وجود بعض الازدهار الاجتماعي السائد في العصر المملوكي، والبساتين والحدائق المنتشرة في إقليم القليوبية، إلا أنه لم يستمر، فقد تعرض الناس لمحن الفقر ، وبسبب أمراض الطاعون، فقد عاشوا أوقاتا عصيبة أليمة أثرت على طبقات المجتمع ، فقد انتشرت الأوبئة والكوارث الطبيعية التي أودت بالكثير من الناس، ومن تلك الكوارث، توقف نزول المطر؛ فزاد القحط والمجاعات(58).

وزادت أحوال الفلاحين سوء، بسبب عدم فيضان النيل، وحذوث الجفاف،وكان ذلك سبباً أساسياً في تفشي المجاعات بين أفراد المجتمع، وتزايد أعداد الفقراء، فاضطروا لبيع ممتلكاتهم من أجل الطعام والشراب، حيث إن توقف فيضان النيل أدي إلى ارتفاع أسعار الغلال وقل الخبز، ومن ثم اضطربت حياة الناس وسادة الفوضى(59).

مما سبق يمكن القول أن القليوبية فى ذلك الوقت كانت من أهم أقاليم الديار المصرية بسسبب قربها من القاهرة، حيث كانت تمثل مصدر كبير فى إمدادها بالغذاء بسسب مساحتها الخضراء الواسعة وخصوبة أرضهار وسهولة ريها بمياة النيل، وساعدت الطرق البرية والنهرية المارة فى الإقليم على ازدهارها.

(58) محمد بن سهيل طقوش: مرجع سابق، ص 147.

(59) قاسم عبده قاسم:النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، مرجع سابق، ص 178.